الحب المقدّس وأخلاق السعادة عند القدّيس أوغسطين

أ.كحول سعودي

جامعة قالمة

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

ملخص:

توجد حقيقة واقعية أسمى أو حقيقة متعالية، وهي الله الذي هو في نهاية المطاف المحبة الجوهرية، والحب الأزلي، والخير الأسمى، ومبدأ النظام الأخلاقي، والعلّة النهائية لكل مشيئة مخلوقة. الكائن من أجل التفكير، ولكن التفكير نفسه سيكون عبثا وباطلا وغير كاف إن لم ينبسط بالحب.إن دراسة النظام الأخلاقي أو نظام المحبة، ذاك الذي ينبغي أن يتحقق في الحياة الإنسانية، يجب أن يتلقّى النور باستمرار بواسطة تأمل المصدر الإلهي للحب.

الكلمات المفتاحية: القانون الإلهي، الفضيلة، الخير الأسمى، الخطيئة، أصل الشر.

***Resumé*:**

Réalité souveraine et vérité transcendante, dieu est en fin charité subsistante, amour éternel, bien supreme, principe de l'ordre moral, cause finale de tout vouloir crée. L'étre est pour la pensée, mais la pensée elle-meme serait vaine et insatisfaite si elle ne s'épanouissait pas en amour.

L'étude de l'ordre moral ou de l'ordre de la charité, tel qu'il doit etre réalisé dans la vie humaine, doit s'éclairer constamment par la contemplation de la source divine de l'amour.

مقدمة:

يقدم القديس أوغسطين(354-430م) الأخلاق المسيحية ويدافع عنها في أعماله الفلسفية واللاهوتية، باحثا عن السعادة القصوى الكامنة في اتباع طريق الله والإنجيل. مع ردّه الشديد على الخصوم وخاصة المانوية والرواقية، فوضع الأسس الطبيعية للأخلاق وتأسيسها على رسائل المسيح عليه السلام، الراسخة في الضمير الإنساني. ومن هنا كانت الأخلاق الأوغسطينية في طابعها العام، أخلاق مسيحية، لأنّ القانون الأخلاقي عنده يعتمد أساسا على القانون الإلهي، ولأنّ النفس الإنسانية ترغب في الله فتنزع نحوه.

فماهو الخير عند أوغسطين وما أصل الشّر في نظره ؟ وما هو السبيل لتحقيق السعادة الكاملة؟

أ- طبيعة الخير:

من الطبيعي أن نبحث عمّا هو أسمى من الإنسان، رغم أنّ ذلك أمر صعب للغاية بدون شك، وهنا لا يستدعي الأمر تعريف الإنسان في حد ذاته، لأنّ جميع الناس يدركون أننا نتركب من الجسم والنفس معا، إذ لا يسمى أحدهما إنسانا في غياب الآخر، فلا الجسم وحده هو الإنسان في غياب النفس، ولا النفس وحدها هي الإنسان إن لم تحيا في الجسم. فليس الإنسان شيئا آخر غير النفس في صلتها مع الجسم الذي تحركه، وذلك كالفارس الذي هو ذلك الإنسان، لكن في صلته مع الخيل الذي يتحرك بفضله. ومنه نصل إلى أنّ الخير الأسمى للإنسان ليس الخير الأسمى للجسم. فما هو الخير الأسمى للجسم، وما هو الخير الأسمى للنفس؟

يؤكد أوغسطين أنّه لا شيء أسمى وأقوى من النفس، لذا فالخير الأسمى للجسم ليس في اللّذة (*Le plaisir*)، ولا في غياب الألم (*Le douleur*)، ولا في الجمال، ولا في الخفة والرشاقة، ولا في أي شيء ممّا نعتبره بالعادة من بين خيرات الجسم. لكنه – دون ريب- لا يكون إلا في النفس، لأنّ هذه الخيرات التي أحصيناها لا تقوم إلاّ بتفويض من النفس التي هي الخير الأسمى للجسم الإنساني. وبهذا المنطق يجب علينا أن نبحث عن إمكانية وجود الخير الأسمى المجاوز للنفس. فما هو الخير الأسمى والأعلى من النفس الإنسانية؟ لا شك أنّه هو الله تعالى الذي يجعلنا نحيا الخير في ذاته، وهذا الكلام موجه في نظر أوغسطين إلى المؤمنين بوجود الله، وباللّطف أو العناية الإلهية (*La providence*)1.

ومعنى ذلك أنّ الخير الأسمى والحقيقي لا يمكنه أن يكون أدنى من الإنسان، ولا شيئا من طبيعته، بل إنه أكثر سموا وامتيازا منه، وهو المرغوب فيه بالتأكيد، فهو ليس غير الله. يقول أوغسطين حول هذه الفكرة: " فأنسى آلامي وأعانقك يا خيري الأوحد" 2.

يرى أوغسطين أنّ الله هو الخير الأسمى، لأنّ النفس ذاتها لا تصبح خيّرة إلاّ بمقدار نزوعها نحو الله، فالإنسان بطبعه لا يحب إلاّ ما هو خيّر بوصفه خيّرا. فهذه الأرض التي تتشكل من الجبال والهضاب والأنهار حسنة، وهذا المنزل الواسع، وهذه الحيوانات التي هي أجسام حية، وهذا الفضاء الجميل، وهذه الصحّة الخالية من الآلام، وهذا القلب المخلص لصديقه، وهذا الإنسان العادل، وهذه السماء الحاملة للشمس والقمر والنجوم، وهذه الثروات الكثيرة حسنة، نعم كل ذلك حسن. لكن هل هو الخير ذاته؟ إنّ المتأمل جيدا وبرجوعه إلى باطنه سيشعر بوجود الخير ذاته (خير كل خير)، وذلك انطلاقا من القاعدة القائلة بوجود خير أسمى من آخر، وحسب تفضيلنا لخير ما عن خير آخر. والخير ذاته هو الله الذي يجب أن نحبه، وليس هذا الخير أو ذاك. ومنه فلا وجود لخيرات متغيرة في غياب الخير الثابت (*Le bien immuable*)، لأنّ الخيرات الأولى لا تكون خيّرة إلاّ بواسطة المشاركة (*La participation*) في الخير

والتعلق به والاتصال به بواسطة الحب (*L'ammour*) الذي يجعل الإنسان من خلاله يتذوق طعم السعادة 3. هذا هو حقيقة الخير في معناه الدقيق والبسيط عند القدّيس أوغسطين، والذي هو ليس شيئا آخر سوى الخير ذاته، أي الخير الأسمى والأقصى، أي الخير الثابت والمطلق الذي لا يتحول ولا يزيد ولا ينقص، فهو خير بذاته لا بغيره، وذلك عكس الخيرات الجزئية الأخرى التي ليست خيّرة بذاتها بل بغيرها. وبالتالي فإنّ النفس الإنسانية العاقلة لن ترى هذا الخير إلاّ بإرادتها المتطلعة نحو حب الخير نفسه الذي ليس إلاّ الله، أعلى كل الخيرات.

يجب أن نُقرّ في نظر أوغسطين بموجود أعلى، كامل، سرمدي، أي الخير الأعظم وهو سعادتنا الكاملة والدائمة. فكما أنّ حياة الجسد هي النفس، فكذلك حياة النفس هي الله، ونحن حين ننزع إلى الخير الكامل أو السعادة، ننزع في الحقيقة إلى الله نزوعا طبيعيا تلقائيا 4.

إنّ الخير عند أوغسطين بالمعنى الدقيق ليس شيئا آخر سوى الله ذاته، وحب الخير هو حب الله. فالله هو الخير المطلق (*Le bien Absolu*) والكامل، ومن حيث المبدأ فهو معيار كل الخيرات الأخرى. إنّه الموضوع النهائي لكل صورة من صور الحب، طالما أنّه هو الحب نفسه، فالله هو الخير الأسمى والمتحرك وغاية كل فعل خيّر. وبشكل عام فإن الخير هو مبدأ النظام 5. أمّا حب الخير، فهو حب ما هو جدير بالحب، أي حب ما يقودنا إلى حب الله. صحيح أننا إذا اعتبرنا الخيرات المادية مثل الخيرات الجديرة بهذا الإسم، طالما أنّ الحب من أجل هذه الخيرات لا يتعارض مع حب الله، لكن كل حب يجب أن يكون موجها نحو الحب الأسمى، وكل حب مهما يكن فإنّه قيّم وضروري مادام أنّه عمل من أجل الخير الأسمى 6.

الخير الأسمى إذن حسب أوغسطين والأعلى من كل شيء هو الله، وبوصفه خير ثابت، فهو أزلي (*éternel*)، وخالد غير فان (*Immortel*). وكل الخيرات الأخرى لا تكون إلاّ بواسطته، لكنّها ليست منه، لأنّ ما هو منه هو ما هو ذاته، لكن الأشياء التي هو خالقها ليست هي ما هو. فإذا كان هو الثابت فحسب، فكل الأشياء الأخرى متغيرة (*Muables*)، لأنّه خلقها من اللاشيء. حيث أنّه كلي القدرة هو قادر حتى على إحداث العدم (*Le néant*)، أي ما هو غير كائن اطلاقا. لقد خلق الأشياء الخيرة، الكبيرة منها والصغيرة، والسماوية، الأرضية، الروحية والجسمانية، ولكن، ولأنّه عادل، فلا يُعادَل بما هو مُحدَث من الأشياء التي خلقها من العدم. ومنه فكل الخيرات الكبيرة والصغيرة وما بينها (الحسن درجات) لا تكون إلاّ بواسطة الله. وكل طبيعة (*Nature*) بوصفها طبيعة فإنّها خير، ولا وجود لطبيعة ما إلاّ بواسطة الأسمى أو الله الحقيقي (*Le vrai Dieu*). وفي هذه الحالة ينبغي أن نفهم بأنّ كل طبيعة هي فكر أو جسم، فهي خير بالطبع 7. يقول القدّيس أوغسطين: " بما أنّ كل الخيرات، بما فيها غير السامية فإنّها قريبة من الخير الأسمى، وكل الخيرات الأخرى بما فيها الأكثر صغر، والتي هي بعيدة عنه، لا يمكنها أن تكون إلاّ بواسطة الخير الأسمى ذاته" 8.

إذ كانت الأشياء التي خلقها الله كلها خيّرة أو حسنة فهي عند أوغسطين ليست على درجة واحدة من الحسن أو الخيرية، فهناك ما هو خير، لكن هناك ما هو أفضل منه. ولكن إذا كان هناك الأحسن والأفضل فإنّ هناك أيضا الأقل حسنا، والأقل خيرية. فإذا كانت المادة ذاتها خيرا، فإنّ كل شيء يمكن أن يوصف بالتالي بأنّه خيرا، لأنّه ليس من الضروري أن يكون خيرا في ذاته، بل حتى ولو كانت أقل خيرية فإنّ ذلك لازم للكمال الأعظم الذي يوصف به الكل. رغم أنها من الناحية الميتافيزيقية ملازمة وكامنة في داخل الشيء المخلوق. إنّ الأشياء قد خُلقت من العدم، ولأنها خلقت فهي موجودة، وبما أنّها موجودة فهي خيّرة، ولكن لأنّها صادرة من العدم فهي بالضرورة متغيرة أو قابلة للتغير، ومن ثمة فلا بد لنا أن نعرف تماما أنّ إمكانية التغير هي ضرورة لم يعف الله مخلوقاته منها، لأنّ واقعة الوجود

المخلوق ذاتها هي الجذر النهائي لتلك الإمكانية، فالموجودات – لأنّها قابلة لعدم الوجود– تميل إلى العدم، وتتسم بالتالي بإمكانية الدمار، الميل إلى هدم نفسها، ومنه حدوث الشر 9.

ب ـ مشكلة الشر:

لقد طرح القدّيس أوغسطين عدة تساؤلات حول أصل الشّر (*Le mal*)، فاعتبر هذه المشكلة غامضة لديه ومستعصية، أيّا كان مصدر الشر. وقد قام بأبحاثه واثقا من ضلال تعليم المانويين في أثناء تحرّيهم عن مصدر الشر، منتفخين خبثا، ميّالين إلى الاعتقاد أنّ الذات الإلهية أكثر قابلية لتحمل الشر، منهم إلى إرتكابه. لكن وبما أنّ الله صالح فإنّه لم يبدع سوى مخلوقات صالحة، وهو الذي يملأها ويشملها بعطفه. فأين هو الشر إذا؟ ومن أين يأتي؟ وكيف تسرّب؟ وما هو أصله؟ إن لم يكن موجودا، فلم إذا نخاف ونحذر ممّا لا وجود له؟ ولكن، إن كنّا نخشاه ولا مبرر لخوفنا فهذا شر حقيقي يعذّب قلبنا دون مبرر. وعليه إمّا أن نخاف من شر موجود وإمّا أن يكون خوفنا نفسه شرا. ومن أين يأتي الشر طالما أن الله نفسه صالح؟ إنّ الخير الأسمى (الله) قد خلق حقا ما هو أقل صلاحا منه، ومع ذلك فالخالق والمخلوق كلاهما صالح. هل يأتي الشر من المادة التي نظمها وكونها وصورها؟ لكن لله القدرة على تحويلها حيثما لا يظل فيها أثر للشر؟ إنّه لا يليق بالصالح أن يخلق إلاّ ما هو صالح. فالله خيّر وعادل يرعى البشرية بعنايته لا يمكنه أن يكون مصدرا للشر 10.

حاول إذا أوغسطين أن يجيب عن سؤال: ما هو أصل الشر؟ من أين يأتي الشر؟ الإجابة الأوغسطينية ضاربة جذورها في التراث اليوناني بتأثير من أفلوطين. فلماذا لا نقول أنّ المادة هي مبدأ الشر؟ بما أنّ الوجود هو الخير، فإنّ عكس الوجود هو بالضرورة الشر، والمادة هي بمعنى ما لا وجود أو ليست تقريبا شيئا. وهو ما سمح لأفلوطين أن يقول في آن معا أنّ المادة لا وجود، وهي مع ذلك المبدأ الحقيقي للشر. إنّها الفكرة التي تأثر بها أوغسطين في البداية لأنّها الطريقة البسيطة لتفسير جميع النقائص الضرورية في العالم. لكن جواب أفلوطين عن هذه المشكلة يتسق مع مذهبه الذي لا يعتبر الله خالقا بالمعنى الذي نجده في الكتاب المقدس11. وعلى الرغم من أنّ أفلوطين يذهب إلى أنّ الشر يظهر لنا في الحرمان من كل خير، وبأنّ الأفضل أي الخير هو المثال، بينما الشر فهو ما دونه أي حرمان من الخير، فإنّه يعتبر المادة مصدرا للشر، وفي هذا يقول: " أمّا الشر فمن الأصل القديم يعني الهيولى بكونها محلاّ معدّا لقبول الأشياء ولما ينظم... بأنّ الهيولى هي الشر. ذلك لأنّ ما تفعله الصفة وهي مسبوكة في الهيولى، لا تفعله وهي مفارقة قائمة بذاتها..."12. فكل طبيعة مخلوقة سواء طبيعة مادية أو طبيعة فكرية هي خيّرة وليست شرا في ذاتها. وهذا ما عالجناه في مسألة الخير عند أوغسطين، فالقول إذن بأنّ المادة مخلوقة وشريرة معا يؤدي إلى تناقض صريح في التخطيط المسيحي، لذا فالمادة عند أوغسطين ليست شرا حتى وإن كانت مبدءاً بسيطا للاتعيين واللامكان والإضطراب، فإنّها ليست مسؤولة عن وجود الشر. فما هو أصل الشر عند أوغسطين يا ترى؟

ينفي القدّيس أوغسطين في البداية أن يكون الله مصدرا للشر، فيقول: " الله مصدر الخير وليس مصدرا للشر، هل يعقل أن يكون الرب الإله مصدرا للشر ... يا مبدع الأشياء الطبيعية ومنظمها، ماعدا الخطيئة، طبعا، فأنت لها ضابط لا مبدع "13.

ويذكر أنّ الخير هو الوجود أمّا الشر فهو العدم، يقول: " وبالنسبة إليك، لا شرّ، ولا أقول بالنسبة إليك وحسب بل إلى كل ما خلقت لأنّه خارجا عن هذه الخليقة، لا شيء يستطيع أن يستولي على النظام الذي وضعته لها ويعكّره، عن تنافر أعضائها ينجم الشر، وعن تناسق هذه العناصر فيما بينها وبين سواها ينتج الخير... مالا خير فيه لا كيان له، وكل كائن يثبت في الكينونة بمعزل عن الفساد أفضل من غيره لأنّه باق بلا فساد... إذن يتساوى الحرمان من الخير

مع العدم "14. الله هو الوجود المحض والأسمى عند أوغسطين، فليس له من نقيض إلا ما ليس بموجود، وكل ما يوجد في الكون فهو خير، وكل طبيعة خير، وكل خير مصدره هو الله. لذلك فإن اللاّوجود أو العدم هو الشر.

فمعنى الشر عند أوغسطين بالتعبير الأنطولوجي هو إعدام الخير أو نقص في الوجود، وعندما يتعلق بالشر الفيزيائي فيعني غياب التوافق بين بعض عناصر الخلق وبعضها الآخر، على أنّ كل عناصر هذا الخلق خيّرة في ذاتها، ويجب علينا تقبل الطبيعة كما هي كائنة، لأنّ الله خلق كل شيء خيّرا. لكنه قد تتوجه الإرادة إلى أشياء أدنى بدلا من توجهها إلى الله، وهنا ينتج الشر. فالشر ليس له أي وجود، فما هو إلاّ إعدام وسلب للخير 15.

يضيف القدّيس أوغسطين أنّ الله قد خلق التناسب أو الكيف (*Le mode*)، والصورة (*La forme*)، والنظام (*L'ordre*)، وأنّ الكائنات التي تتضمن هذه الكمالات أفضل من غيرها، وهي بمثابة الخيرات العامة لهذه الكائنات التي خلقها الله، سواء الروحية أو المادية. وهذا نفسه دليل على أنّ الله أسمى وأعلى وأعظم، لأنّه يتضمن التناسب كلّه، والصورة كلّها، والنظام كله. وفي هذه الحالة كلما كانت هذه الكمالات أكبر، كانت الخيرات كبيرة، وكلما كانت أصغر، كانت الخيرات صغيرة، وإذا انعدمت انعدم معها الخير. وينجم عن ذلك أنّ حضور هذه الصفات هو حضور الطبيعة حضورا كبيرا، وعلى العكس من ذلك فإن غيابها وانعدامها هو زوال لكل طبيعة، لذلك فإنّ كل طبيعة هي خير 16. وحول هذه الفكرة يقول أوغسطين: " ما الشر إلاّ فساد في تناسب، أو صورة، أو نظام الطبيعة.كذلك نسمي طبيعة ما سيئة تلك القابلة للفساد، طالما أنّ الطبيعة غير الفاسدة هي خيّرة حقا. لكن الطبيعة الفاسدة بوصفها طبيعة فهي خيّرة، وبوصفها فاسدة فهي سيئة "17. يلزم عن ذلك أنه كلما فقد الشيء كمال من الكمالات السابقة أو أكثر قلت خيريته، إلى أن تنعدم فيُسلب الخير ويفسد، وذلك هو معنى الشر. وبهذا نستطيع التمييز بين الأشياء القيّمة أكثر والأشياء الأقل قيمة.

للموجودات إذن في نظر أوغسطين ثلاثة كمالات (التناسب، الصورة، النظام)، وبحسب نصيبها من هذه الكمالات، سواء أكانت كائنات جسمانية أم روحية، تكون مرتبتها في الخير. أمّا الشر فهو فساد واحدة من هذه الكمالات أو فسادها كلّها. إنّه عدم كمال من هذه الكمالات. والشر إمّا طبيعي أو أخلاقي. وفيما يتصل بالشر الطبيعي، يلاحظ أنّ الأشياء لو نظر إليها في ذاتها فإنّها خيّرة. فإن قيل: إنّ العالم مسرح للخراب والدمار بفعل العوامل الطبيعية كالزلازل والبراكين والعواصف، فالرّد على هذا هو أنّ الأشياء التي تهدّمت هي في ذواتها خيّرة، ولا بأس أن تحل بعض الأشياء محل بعض، وأنّه لجميل منظر التغير الذي تحدثه هذه العوامل الهدّامة. أمّا الشر الأخلاقي فإنّه يرجع إلى حرية الإرادة الإنسانية 18. فهل الشر جوهر (طبيعة)؟ وهل الإرادة وحدها مسؤولة عن فعل الشر؟

لقد ساعدته (أوغسطين) النظريات الأفلاطونية على إدراك معنى الخير والشر، وأنّ الأشياء خيرات بالطبع والشر عرضي وليس جوهرا، وهو حد للخير19. وفي هذه المسألة يبدأ أوغسطين رأيه بالرّد على المانوية التي تعتبر الشر جوهرا، وبالتالي فهو موجود كوجود الخير تماما 20. فالمانوية، وانطلاقا من مبدأ الثنائية المعروف لديهم، يعتقدون أنّه من البديهي القول بعدم وجود جوهر واحد، إذ لا تشابه في نظرهم بين الظلمة والنور، ولا بين الحق والباطل، ولا بين الحياة والموت...الخ 21

يقول أوغسطين في نقده للمانوية بأنّ الشر ليس إلاّ فساد (*Corruption*)، وليس طبيعة، بل هو ضد الطبيعة. والفساد هو شر كل الأشياء التي يمكننا أن نكتشف فيها العدم أو الحرمان (الشر)، ففساد العالم يسمى الجهل، وفساد الحكيم هو اللاّحكمة، وفساد العادل هو اللاّعدل، وفساد الشجاع هو الجبن، وفساد النفس الساكنة هو الجشع والقلق، وفساد الصّحة في الجسم الحي يسمى الألم والمرض، وفساد الجمال هو القبح، وفساد النظام هو

اللاّنظام، وفساد الكمال هو النقص والصدع. سيكون صعبا إحصاء كل حالات الفساد واحدة بواحدة. فالفساد لا يعدم إلاّ عندما يُلحق اضطرابا بحالة طبيعية، فهو بطبيعة الحال ليس طبيعة، لكنه ضد الطبيعة. وينجم عن ذلك بداهة أنّه لا طبيعة هي شر22. وفي هذا الموضوع يقول أوغسطين: " لا يمكن للشر أن يكون جوهرا، بل فقدان الخير. انطلاقا من الأرض إلى السماء، من المنظور إلى غير المنظور، نجد خيورا أفضل من سواها، غير متساوية فيما بينها، إنّها كلها خيور "23. ويقول أيضا: "وعليه طالما أنّ الشيء موجود فهو خيّر، وكل موجود خير، والشر الذي كنت أبحث عن علته ليس جوهرا، إذ لو كان جوهرا لكان خيرا. إما أن يكون جوهرا لا يقبل الفساد وبالتالي فهو خير عظيم، أو أن يكون جوهرا قابلا للفساد، وهذا لا يمكن أن يكون، إلاّ إذا كان الجوهر خيّرا"24. ويعني أوغسطين بالجوهر الذي لا يقبل الفساد أو الخبر العظيم الله تعالى، الذي هو الخير الأسمى والمطلق، أمّا الجوهر القابل للفساد فهو دلالة على أي كائن خلقه الله باعتباره طبيعة جسمانية أو فكرية. فالخير جوهر أو طبيعة، وفي ذلك فهو وجود، أمّا الشر فهو مجرد عرض نقيض الطبيعة، وفي ذلك فهو عدم ولا وجود. فالشر يزيل خير الطبيعة ويفسده.

وهنا نستخلص الحقيقة الوجودية للخير والشر، فالخير شيء بالفعل، أمّا الشر فلا يمكن أن يعتبر وجودا لأنّه سلب للخير، وهذا يعني أنّ الخير شيء ايجابي لوجود ما، أمّا الشر فهو نقصان أو عدم25.

لقد تبنى أوغسطين في البداية فكرة الأفلاطونية المحدثة القائلة بأنّ الجسد والمادة بصفة عامة هما المصدر الأساسي للشر في هذا العالم. وقد ذهب إلى أنّ المادة هي أدنى درجة في سلسلة الموجودات، وهي لهذا السبب تتصف بالاضطراب واللاّتحدد واللاّتعين، ومن هنا كانت مصدرا للشر في العالم. غير أنّ أوغسطين سرعان ما رفض هذا التفسير على اعتبار أنّه يتناقض تناقضا واضحا مع محتوى الكتاب المقدس المتضمن للفكرة القائلة بأنّ كل ما خلقه الله حسن، فإذا كانت المادة من خلق الله فلا بد أن تكون شيئا حسنا أي خيرا وليست شرا. ومعنى ذلك أنّها لا يمكن أن تكون مصدر الشر في العالم. فبدأ أوغسطين من ذلك يجد ما يبرر وجود الشر في العالم، بعد سماعه إلى عظات أسقف مدينة روما القديس أمبرواز حول شرح الكتاب المقدس، والرّد على المانويين وغيرهم من المبتدعة 26.

وبعد جهد كبير توصل أوغسطين إلى الرأي القائل بأنّ حرية الاختيار في ارادتنا هي علّة شرورنا، حيث لم يتوصل إلى إدراك الفكرة بوضوح إلاّ بعد إرتفاعه قليلا إلى النور الإلهي فأدرك أنّه عندما يريد أو لا يريد فهو واثق ثقة مطلقة أنّه هو من يريد أو لا يريد وليس شخصا آخر. ومنذئذ أدرك أنّ أصل الشر كامن في الإنسان، والدليل على ذلك ـ في نظره ـ هو العقاب الإلهي العادل الذي ينزله على العبد، واعتبار هذا الأخير مسؤولا عن كل أفعاله27. فليس للشر عند أوغسطين علّة أخرى غير حرية اختيار الإرادة. وفي هذه المسألة يقول أوغسطين: "... الإرادة إذن هي العلّة الأولى للخطيئة28 "29. ومعنى ذلك أنّ الرذيلة يرتكبها الإنسان بإرادته، حينما ينحرف عن الفعل الحسن.

والرذيلة عند أوغسطين شرّ، تُفسد في الناس الذين هم أعداء الله خير طبيعتهم. وهي مناقضة لله، وليست الطبيعة مناقضة له، لأنّ الشر هو نقيض الخير، وبمعنى آخر فالرذيلة مناهضة لله كما الشر للخير، على أنّ الطبيعة ذاتها التي يفسدها الشر هي خير، وهو مناف له، وهذا الشر لا يمكنه أن يؤذي الله بل إنّه يؤذي الطبائع القابلة للتغير والفساد، في حين أنّ الله خير أسمى وطبيعة ثابتة. وهذه الطبائع أفسدتها الرذيلة الناتجة عن الإرادة الشريرة التي هي ليست شريرة إلاّ لكونها ضحية لرذيلة ما بينما هي جيّدة بصفتها طبائع30. يقول القدّيس أوغسطين حول هذه الفكرة: " إذا كانت طبيعة الله ثابتة لا تزول، فإنّ الكائنات المخلوقة من العدم قابلة للزوال، فهي تكثر من عمل الخير بقدر مالها من كيان وعللها فعّالة، ولكن بما أنّها ذاهبة إلى الزوال فهي تعمل الشر وعللها ناقصة إلى زوال. والإرادة الشريرة ليست فيمن تقيم إلاّ لأنّه هكذا يريد وقد يكون بخلاف ذلك إذا أراد"31.

وهكذا، فإنّ الشر الأخلاقي عند أوغسطين من إرادة الإنسان الحرّة، لأنّ الإنسان قابل للتغير كالكائنات المخلوقة الأخرى، فهو قادر على التمرد والعصيان، أي عصيان أوامر الله، فإنّه قد عصى وتمرّد، رغم أنّه لا يريد موضوعا هو شر في ذاته لأنّ في ذلك تناقض، بل في سبيل البحث عن الخير أشاح بوجهه عن الله، وهو على الرغم من أنّ الله صنعه فقد فضّل نفسه على الله، وهو بفعله هذا جلب الشر الأخلاقي إلى هذا العالم، أو كان يمكن أن يجلبه لو لم يسبقه إبليس. وفي كل مرة يرتكب فيها الإنسان خطيئة فإنّه يجدد فعل التمرّد هذا. فالشر القائم في العالم ينبع أساسا من الإرادة الحرّة للإنسان الذي يختار قراراته بحرّية. والسؤال المطروح في نظر أوغسطين هو: كيف يمكن أن يكون الله الكامل قادر على إعطائنا حرية الإرادة، أي الإرادة القادرة على فعل الشر؟ يجيبنا أنّ ذلك ناشئ عن سوء استعمال الحرية بنبذ الخير الدائم والإقبال على خير زائل فهو عدم النظام في الإرادة، فالشر يرجع إلى حادث يمكن تجنبه، ولكي يبعده إلى هامش الخير أعني يحصره في أطراف هذا الكون الخيّر أساساً 32. فالشر عند أوغسطين نابع عن فساد في الإرادة، لكن ما معنى فساد الإرادة؟

يصف القدّيس أوغسطين الشر بأنّه الإنحراف إلى ما يخالف نظام الطبائع، وذلك في التخلي عن الكائن الأسمى إلى الكائن الأسفل، وفي الواقع ليس البخل عيبا في الذهب إنّما عيب في الإنسان الذي يحب الذهب حبّا غير منظم، ويحتقر العدل الذي يُفضّل على الذهب بما لا يُقدّر بثمن. والنجاسة ليست عيبا في الأجساد الجميلة والبهية ولكنها عيب في النفس التي تنقاد وراء شهوة جامحة إلى إشباع الملذّات الجسدية على حساب القناعة التي تجمعنا إلى الجمالات الروحية والنعم غير القابلة للفساد. إنّ الشر يزيل خير الطبيعة ويفسده، ولا تصير الإرادة هكذا إلاّ عن طريق السقوط القائم على التخلي عن الله33. فارتكاب الرذيلة أو الخطيئة هو الابتعاد عن الخير وحب الله الذي هو في نفس الوقت عصيان لأوامر الله بإتباع الهوى والانغماس في الشهوة الجسدية فيضعف الروح والعقل كنتيجة طبيعية للخطيئة، ويكون ما هو أسمى في نظام الروح تابعا لما هو أدنى.

إجمالا، الخطيئة عند أوغسطين هي الكلام، أو الفعل، أو الرغبة ضد القانون الأبدي. أليس القانون الإلهي أعلى من الطبيعة، أو هو فوق الطبيعة؟ ألا يبدو من الأوفق أن نعرّف الخطيئة بأنّها تعارض القانون الذي يحكم الطبيعة ويسيطر عليها. وما دامت الطبائع هي طبائع لأنّ الله جعلها كذلك، فإنّ عصيانها، أو انحراف هذه الطبائع عن ماهيتها الخاصة، يعني انتهاك القانون الذي وضعه الله فيها بفعل الخلق، ومن ثمة فإنّ استقامة الفعل البشري تقاس بمدى اتفاقه مع الإرادة الإلهية، أي بطاعته لأوامر الله. والقانون الأبدي لا يعني شيئا آخر سوى عقل الله الذي يضم ويشمل العقل الإنساني، ويعني أيضا وصايا الله. فعصيان العقل هو عصيان الله نفسه، وكل خطيئة هي خرق للقانون الإلهي34.

ولكن، تختلف طبيعة الشر عند أوغسطين كثيرا عن الشر الأخلاقي في الفلسفة اليونانية القائمة في الانحراف عن الطبيعة العاقلة للإنسان أو الانتقاص من إنسانيته، وهذا ما يبدو واضحا عند آرسطو وأتباعه كتوما الأكويني. فالخير عند آرسطو هو في التزام أوامر العقل، مع التعود على ذلك، فالأخلاق عنده قائمة على ملكة العقل، ويحدث أن تكون أفعال الإنسان متوافقة مع هذه الملكة، أو مناقضة لها، فتكون خالية من التعقل35.

ج ـ الفضيلة:

الفضيلة (*La vertu*) ذاتها عند أوغسطين، لا تعد بين خيور الطبيعة الأولى، لأنّ التربية تدخلها لاحقا بعدها، على أنّ الفضيلة التي تطالب بالمركز الأول بين خيور الإنسان، ما هو عملها ها هنا؟ وإلاّ كانت حربا على الرذائل والآثام، لا على الرذائل الخارجية بل الداخلية، ثم ليست حربا على الرذائل الغريبة بل على رذائلنا الخاصة والشخصية. ويضيف

أوغسطين أنّ هناك حربا دائرة بين الجسد والروح، فالجسد يشتهي ما هو ضد الروح، والروح يشتهي ما هو ضد الجسد، وفي هذه الحالة يجب علينا، بمساعدة الله، ألاّ ندع الروح يستسلم لهجمات الجسم، لأنّه إذا انهزم انقاد إلى القبول بالخطيئة واقتراف الآثام والرذائل. فالفضيلة مثلا التي يسميها اللاتين اعتدالا تكبح جماح الرغبات الجسدية، خوفا من أن تنتزع، من العقل الضعيف، تنازلات كثيرة ومؤسفة. أما الفضيلة المسماة فطنة فهي تستعمل وعيها لتميز الخير من الشر، كي لا تقع في ضلال في سعيها إلى الخير وهروبها من الشر. لأنّ قبول الخطيئة هو نفسه شر. في حين أن مقاومة الميل إلى الشر وارتكاب الخطيئة خير. فالنظام الطبيعي والعادل هو في خضوع النفس لله، والجسد للنفس، ومنه خضوع النفس والجسد معا لله36.

وعلى نحو قريب جدّا مما ذكره القديس أوغسطين حول محاربة شهوات الجسد، نجد أفلاطون قد ذكره في محاورة "فيدون"، وذلك بهدف تحقيق سعادة النفس، يقول أفلاطون: " ولكن الروح التي قد أصابها الدنس... والتي تغرم وتهيم بالجسد ورغبات الجسد ولذاته، حتى ينتهي بها الأمر إلى العقيدة بأنّ الحقيقة لا تكون إلاّ في صورة جسدية يمكن للإنسان أن يلمسها، وأن يراها وأن يذوقها، وأن يستخدمها لأغراض شهواته ـ أعني الروح التي اعتادت أن تنفر من المبدا العقلي..."37.

والفضيلة عند القديس أوغسطين بالتعريف هي عادة نفسية مطابقة لحال كائن في الطبيعة، وفي العقل. وقد قسّمها إلى أربعة فضائل كبرى:

1ـ الإعتدال (*La tempérance*): وهو التحكم الدقيق للعقل في الانفعال وفي كل الحركات الأخرى. وأشكالها هي: العفّة (*La continence*)، والحلم (*La clémence*)، والتواضع (*La modestie*).

2ـ القوة (*La force*): تستدعي مجابهة المخاطر وتحمّل المحن والمصائب بعزم. وأشكالها هي: الشهامة (*Magnanimité*)، والإقدام (*Hardisse*)، والصبر (*La patience*)، والمثابرة (*La persévirance*).

3ـ العدالة (*La justice*): هي عادة نفسية يفرضها الاستعمال الاجتماعي لأجل احترام القوانين والدين والأعراف.

4ـ الفطنة أو الحصافة (*La prudence*): هي معرفة الأشياء الحسنة والسيئة، والتي تبدو غير متمايزة. وهي تتضمن الذاكرة، والعقل، والبصيرة. فتتمكن النفس فيها من استحضار الماضي، وتحليل الحاضر، واستحضار حادثة مستقبلية قبل وقوعها. وعلى الحكيم في نهاية المطاف عند أوغسطين أن يبحث عن كل هذه الفضائل لذواتها فقط، دون أي رؤية نفعية 38.

لكن يجب أن نضع في ذهننا الفضيلة التي تقودنا إلى الحياة السعيدة، فيؤكد أوغسطين أنّها حقا ليست شيئا آخر غير حب الله، والتمييز بين الفضائل الأربع، إنّما هو من أجل التمييز بين مختلف صفات ومظاهر هذا الحب، فكل الفضائل تتوحد فيه، ومنه فالفضيلة الأسمى هي الحب الأسمى لله (*le souverain amour de dieu*). وما يثبت ذلك أنّ فضيلة الاعتدال، هي الحب الذي يُعطى كله لمن يحب، وفضيلة القوة، هي الحب الذي يقاوم به من أجل من يحب، وفضيلة العدالة، هي الحب الذي لا يظهر إلاّ اتجاه موضوع ما والتغلب على الأشياء الأخرى، مع ضرورة الاستقامة، وفضيلة الفطنة، هي الحب بالبصيرة. لكن هذا الحب الذي تحدثنا عنه، هو حب الله، أي الحكمة الأسمى أو الخير الأسمى، فالاعتدال هو الحب الذي يحفظ الاستقامة من أجل الله، والقوة هي الحب الذي يتحمل فيه العبد كل شيء من أجل الله، والعدالة هي الحب الذي لا يظهر إلاّ لله، والفطنة هي الحب الذي يميز فيه الإنسان ما يساعده للتوجه نحو الله عمّا يمنعه من ذلك 39.

ومعنى ذلك أنّ الفضائل الأخلاقية ـ من وجهة نظر أوغسطين ـ ترجع كلها إلى فضيلة عليا واحدة، وهي فضيلة الحب، حب الله، أمّا الفضائل الأخرى فقد أرجعها أيضا إلى الفضيلة الرئيسية التي هي حب الله، ولذلك يرى أنّ الفضائل إذا انقطعت صلتها بالله أصبحت رذائل، وهي تُطلب من أجل الله 40. يقول في اعتبار الفضائل الأربعة الأساسية موجهة نحو حب الله ما يلي: " باعتبار أن الله هو الخير الأسمى للإنسان، فما لا يقبل الجدل إنطلاقا من ذلك حقّا هو أن الرغبة في الخير الأسمى تعني الحياة الخيّرة، والحياة الخيّرة ليست شيئا آخر سوى حب الله. وهو ما تدعو إليه كل الفضائل لتحقيق كمال الإنسان"41.

د ـ السعادة:

بدأ القديس أوغسطين حديثه عن السعادة بسؤال: هل يتوق كل الناس إلى السعادة؟ وقد أجاب بأنّه لو قدّر لنا أن نسأل كل الناس ـ مهما كانت لغتهم ـ سؤالا واجدا: أترغبون في السعادة؟ لأجابوا دون تردد، نعم. فقد يرفض شخص ما حمل السلاح الذي لا يرفضه غيره لكنهما لا يرفضان إطلاقا الرغبة في الحصول على السعادة 42. ثم يضيف بعد ذلك أنّ علم الأخلاق هو سبيل السعادة، وهو في اللغة اليونانية (*L'éthique*) يدرس مسألة الخير الأسمى وبه ترتبط كل أفعالنا وإليه نسعى، حتى إذا حصلنا عليه سُعدنا، وهو الهدف المنشود. على أنّ هذا الخير أصل كل سعادة، أناس يجعلونه مرتبطا بالجسد وآخرون بالروح وغيرهم بالروح والجسد معا. لكن السعي إليه في الجسد هو سعي إليه في الجزء السفلي، والسعي إليه في الروح هو السعي إليه في الجزء الأعلى 43. لكن ما السعادة الحقة؟

إذا كان الخير الأسمى عند أوغسطين هو الله، فإنّ السعادة الحقة لا تكون إلاّ في الحصول على هذا الخير الأقصى والتلذذ أو الإستمتاع به، علما أنّ ما يشعرنا بذلك هو الحب وحده، أي حب الله دون غيره حبا حقيقيا، ومن يتصور السعادة غير ذلك فإنّه يتناقض مع الحقيقة الجلّية لكل حكيم. فمن يحيا بحب أسمى الفضائل (فضيلة الفضائل) يدرك السعادة الحقيقية، ومن أنكر ذلك ابتعد عن السعادة وعاش شقيا. وفي هذا يقول أوغسطين: " على الجميع أن يقبلوا برأي الفلاسقة القائلين إنّ الإنسان السعيد هو من يتمتّع بالله لا كما يتمتّع الإنسان بجسده أو بروحه، ولا كما يتمتّع الروح بالجسد أو بذاته أو كما يتمتّع صديق بصديقه بل كما تتمتّع العين بالنور... وحسبنا أن نلاحظ هنا أنّ أفلاطون يضع الخير الأسمى في أن يعيش الإنسان بموجب الفضيلة، ويرى أن هذه الحياة لا يمكن أن تتحقق إلاّ في الإنسان الذي يعرف الله ويقتدي به... "44.

شدّد أوغسطين بعد ذلك على فكرة صوفية محضة وهي الاتحاد بالله الذي ينبع عنه التمتّع بالله يقول: " الحب يشدّنا إليه لنستريح فيه ونجد الراحة على يده، وهي الغاية القصوى، حيث الكمال وحده يجعلنا نجد السعادة. إنّ ذاك الخير النهيوي، الذي طالما تناقش فيه الفلاسفة، يتحقق في الاتحاد بالله اتحادا روحيا يعطي النفس العاقلة، نوعا ما، خصوبة في الفضيلة ظاهرة. ذاك هو الخير الذي يطلب منّا أن نحبه " 45.

يعود القديس أوغسطين إلى شهادة الكتب المقدّسة في حديثه عن النور الحقيقي والمنبع الذي ننهل منه السعادة: " أحب الرّب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل عقلك وأحبب قريبك مثل نفسك " 46. إنّ الإنسان المفكر سواء الفيلسوف أو اللاّهوتي، يسجل بعمق وبواسطة التجربة اليومية للحياة الروحية بأنّ الإنسان يبحث عن السعادة، فيلاحظ بأنّ الله هو الخير الأسمى الذي نعمل على الإستمتاع به. على أنّ هذا الإستمتاع بالله هو غاية الحياة الإنسانية كلها، مع القصد نحو معرفة الله ومعرفة الإنسان معا 47.

ولكن، لا سعادة عند أوغسطين إلاّ في امتلاك الخير الأسمى، فنحن عندما نبحث بواسطة العقل عن الكيفية التي يجب أن يحيا بها الإنسان، فإنّنا نريد حقًّا أن نحيا سعداء. لكن من غير المعقول أن نحكم على شخص بأنّه سعيد ما لم

يمتلك الموضوع الذي يحبه، ماعدا إن كان مُضرًّا فهو غير مرغوب فيه. أمّا من لا يرغب في الحصول على ما يحبه فهو مريض. بقي إذن القول بأنّ الحياة السعيدة للإنسان في الخير الأسمى الذي هو في نفس الوقت محبته وامتلاكه، لأنّ ما نسميه متعة، ليس إلاّ امتلاكنا لما نحبه. وليس سعيدا من لا يتمتّع بالخير الأسمى للإنسان، طالما أنّ من يملكه لا يستطيع أن يكون غير سعيد. فيجب علينا أن نسعى لامتلاك الخير الأسمى إن كنا نرغب في الحياة السعيدة 48.

لقد أثبتنا أخيرا أنّ من يمتلك الله ـ في نظر أوغسطين ـ فهو سعيد، ولا أحد بإمكانه أن يقول بعكس ذلك. ومن يفعل ذلك فهو حكيم، والحكمة ها هنا هي ذلك المعيار الذي تتعقل به النفس نفسها، فلا تندفع نحو ما يُنقص من كمالها، لأنّه عندما تستعجل النفس في الحصول على اللّذات، والطموح، والرغبة، والكبرياء وغيرها ممّا يفقدها السعادة، فإنها تعيش في الخوف والطمع وغيرها من الانفعالات. وعلى العكس من ذلك فإنّ النفس الحكيمة تقوم بفعل التأمل، أي تأمل موضوعها الأزلي، بعيدا عن أضاليل الأشياء الباطلة التي لا طائل تحتها 49. فالسعادة هي ميل عقلي نحو الله، لأنّها تستدعي العقل، أي معرفة الموضوع الأزلي، موضوع الحب الذي تتأمله النفس.

ومنه، فالسعادة عند أوغسطين هي نزوع النفس نحو الله، أي نحو تأمل الحقيقة الأسمى، والتأمل يعني معرفة وحب الكائن الأزلي الثابت (الله). وهي نوع من الاتصال الروحي أو الحدسي – بواسطة القلب – بالنور الحقيقي الثابت 50. إنّ الحقيقة ـ في نظر أوغسطين ـ واحدة، وأنّ طلبها هو الحكمة، والحكمة تطلب الحقيقة من أجل السعادة، لأنّ السعادة هي الاستمتاع بالحقيقة التي نبلغها عن طريق الحكمة. وبوسع الحكيم أن يملك السعادة بالرغم من أنّه كائن فان 51. ومعنى ذلك أنّ غير الحكيم هو من يبتعد أكثر من الله، وذلك عندما ينقلب إلى أشياء أخرى أدنى، فيعيش حياة الطمع والجشع، وبالتالي حياة الشقاء. لذلك يطرح أوغسطين هذا السؤال: هل يجب أن يهتم الإنسان للخيرات الجزئية؟

يجيب أوغسطين بأنّ الكتاب المقدّس يأمرنا باحتقار ما يغوينا في العالم كالعجرفة والكبرياء في مجال العلم، وشهوات الجسم التي نحصل عليها عادة بواسطة الحواس الجسمية القابلة للمشاهدة، وهي بالتالي مؤقتة، وفانية غير أبدية. يجب إذن ـ في نظر أوغسطين ـ على الإنسان المؤمن أن يحب الله وحده، مع احتقار كل الأشياء الملموسة التي لا تستخدم إلاّ لضروريات الحياة فقط، وهذا طبعا ما يبعد النفس عن الطمع والجشع، ويقرّبها إلى الله وحده، فتظل متوجهة نحوه بواسطة نار الحب (*Feu de l'amour*) الذي يلهبه فيها الله 52.

ينفي أوغسطين أن تكون السعادة في اللّذات والخيرات الجزئية، فالسعادة الحقة والخير الأسمى ليسا في لذّات الجسم والحياة، كالثروات والسلطة والمجد والمناصب الرفيعة وملذات الجسد وغيرها من الخيور الحقيرة، والخوف من ضياعها، لأنّها تؤدي إلى الوقوع في الآثام والخطيئة. فيعبث الإنسان بما هو أسمى وأفضل، ويتجاهل أنّه لا ألطف من محبة الله ولا أسلم له من أن يحب حقيقته التي لا أجمل منها ولا أبهى53.

ثم يواصل أوغسطين تصوره حول السعادة بنقد رأي أبيقور ـ بعد تفضيله للأفلاطونية ـ وفي هذا يقول: " وتحدثت إلى صديقي ألبيوس ونبريديوس 54 عن الخير الأسمى والشر الأعظم وقد أناصر باطنيا أبيقور لولا إيماني بخلود النفس والثواب والعقاب، هذه الثلاثة التي تنكّر لها أبيقور. ثم طرحت السؤال التالي: إن كنا خالدين وعشنا في لذة جسدية ثابتة ولم نخش ضياعها، فلم لا نكون سعداء؟ وعن أي شيء لا نزال نبحث؟ ولم أجد أنّ ما يشقيني كثيرا هو أنّي في عمايَ وجراحي... " 55. إنّ أبيقور يحصر السعادة في اللّذّة، يقول: " اللّذّة هي النهاية السّوية التي تلحظها الطبيعة لنشاطنا، ولا يمكن أن تتكون السعادة إلاّ في امتلاك وتجميع اللّذّات..." 56.

هكذا أراد الفلاسفة ـ في نظر أوغسطين ـ الحصول على حياة السعادة دون أن يطلبوها من الله. فالبعض قال: سعيد من يستمتع بالخيرات الأرضية، والبعض قال: سعيد من وجد قوته بنفسه. وهذا ما تقوله الرواقية والأبيقورية. ففي أثينا التقى القدّيس بولس بالفلاسفة وخاصة الأبيقوريين والرواقيين، فلاحظ أنّ كلهم أرادوا الحصول على السعادة، تلك التي وضعها أبيقور في الجسم، جعلها أنصار الرواقية في الفضيلة. لكنّهم لم يحصلوا في حقيقة الأمر إلاّ على حياة الشقاء. وفي مقابل ذلك نجد المسيحي المؤمن عند أوغسطين لا يطلب السعادة من الجسم، ولا من الفضيلة كمكسب شخصي، لكنّه يطلبها من النعمة بالبحث عن المسيح وتمجيده، لأنّ المسيح وحده قادر على إنقاذه من الخطأ، ومن الموت، ومن الألم. فيقوده إلى الحياة، حياة السعادة والأبدية 57.

لكن عموما، لم تسلم آراء أوغسطين الأخلاقية من النقد، لأنّه كان يسعى إلى الوصول إلى صيغة محددة لفكرة دقيقة عن طبيعة يُنظر إليها على أنّها ماهية ساكنة لها حدود معينة، وكان على يقين تام أنّ الشر عاجز عن هدم الطبيعة، وما لم يستطع أن ينجح في التعبير عنه صراحة هو أنّه لا يمكن أن تكون طبيعة أخرى غير التي نعرفها 58. وهذه الطبيعة الثابتة والماهية الساكنة هي الخير باعتباره الأصل والجوهر، وما لم يوضّحه هو إعطاء التفسير المقنع على أنّ الشر مجرد عرض.

ومنه، فإنّ الأطروحة الأوغسطينية القائلة بسلبية الخطيئة وعدم وجودها تحمل تناقضا. سواء من الناحية السيكولوجية أو اللاهوتية، إذ كيف نفسّر فعل التضحية وأفعال الجرائم؟ هل هي غير موجودة؟ وإذا كانت الخطيئة ليست شيئا فلا يمكنها إفساد أو إعدام أو سلب طبيعتنا طالما أنّها لا شيء، فهل يعقل أنّنا عندما نخطئ لا نفعل شيئا؟59

خاتمة:

إننا لا نجانب الصواب لو قلنا بأن أوغسطين قد جعل من تعاليم الإيمان المسيحي مبدءاً يفسر به الخير الدائم القائم في كل الموجودات. ويُفسَّر بهذا المبدأ أيضا الشر كحادث سلبي وعرضي يمكن للمؤمن التغلب عليه. هذا هو معنى التفاؤل والأمل الذي يطبع المذهب الأوغسطيني، والذي من خلاله أسس أوغسطين السعادة، لأن الإيمان في نظره هو القادر على النفاذ إلى ماهية الخير الأسمى(الله) وقداسته. لذلك ربط السعادة بالحب المقدس، وبالتالي أقام الأخلاق كلها على ماأسماه بالدين الحقيقي.

حياة أوغسطين ومؤلفاته(بإيجاز): كان ميلاد أوغسطين (*aurèle augustin*) فيلسوف المستقبل، أسقف وأب (*éveque et père*) الكنيسة، في 13نوفمبر 354م، أبوه *patricius* وأمه *monica* المسيحية. وُلد بثاغاست (*thagaste*) سوق اهراس ببلاد نوميديا الجزائرية حاليا، وتوفي بهيبون(*hippone*) عنابة حاليا في 28 أوت430، بعد سيطرة الوندياليين على المدينة قبل أشهر.

- *claude lorin : pour saint augustin, bernard grasset, paris, 1988, p16.*

ومن أهم مؤلفاته:

1-*contre les académiciens(386)*.

2-*soliloques(386)*

3-*de la vraie religion (390)*

4-*du libre arbitre(395)*

5-*de la doctrine chrétienne (397-425)*.
6-*la trinité(398-417)*.
7-*les confessions(400)*.
8-*la cité de dieu(411-428)*.
9-*de l'origine de l'ame(419)*.
10-*retractions(428)*.
Jacque chabanne : Saint Augustin, éditions France- empire paris, 1961, -p307-309.

الهوامش:

1 *Saint Augustin: La moral chrétienne, introduction, B. Roland - Gossellin, Edition, Desclée de Brouwer et cie, Paris, 1949, pp 145, 151*.

2 أوغسطين: اعترافات، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط5، 1989، ص09.

3 *Saint Augustin : Traités de moral, Oeuvres dogmatiques, de la trinité, tome12, traduction Sous la direction de M . Raulx, Edition, le- Duc, L. guérin et cie Paris, 1868, pp 454- 455*.

4 يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، دار المعارف، القاهرة، ط3، ص 51.

5 أنظر مشكلة الشر.

6 *Christain Nadeau : Le vocabulaire de Saint Augustin, Ellipses, Edition marketing S. A. Paris, 2001, p 14*.

7 *Saint Augustin: La moral chrétienne, op- cit, p 441*.

8 *Ibid, p 441*.

9 إيتين جلسون: الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة وتعليق إمام عبد الفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 2009، ص ص 178 ـ 179.

10 أوغسطين: اعترافات، المصدر السابق، ص ص 124 ،131.

11 ايتين جلسون: الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، المرجع السابق، ص 175.

12 أفلوطين: تاسوعات أفلوطين، ترجمة فريد جبر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1997، ص 103.

13 أوغسطين: اعترافات، المصدر السابق، ص ص 17 ، 24.

14 المصدر نفسه، ص 136.

15 *Serge Cansel : Saint Agustin, Edition, Fayard, Paris, 1999, p 131*.

16 *Saint Augustin: La morale Chrétienne, op- cit, pp 443 – 445*.

17 *Ibid: p445*.

18 عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص ص 251ـ 252.

19 حنّا أسعد فهمي: تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى الآن، تحقيق وتقديم، عقبة زيدان، دار نور، دمشق، سوريا، 2009، ص 146.

20 *Saint Augustin : La moral Chrétienne, op – cit, p271*.

21 *Francoi Decret: Aspects Du manichéisme Dans l'afrique Romaine, Alger, 1968*.

22 *Saint Augustin: Six Traités, Anti - manichéens(17), traduction, R. jolivet et M. Jorjon, édition, Desclée de brouwer et cie, Paris, 1961, pp 487—489*.

23 أوغسطين: مدينة الله، ج2، ترجمة الخوري أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط2، 2008، ص36.

24 أوغسطين: اعترافات، المصدر السابق، ص136.

25 فايزة أنور شكري: القيم الأخلاقية، دار المعرفة الجامعية للطبع وللنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، 2011، ص 110.

26 عصام زكريا جميل: مصادر فلسفية، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط1، 2012، ص ص 93 ـ 94.

27 أوغسطين: اعترافات، المصدر السابق، ص 124.

28الخطيئة هي رفض هبة الله بواسطة حرية الإنسان، الذي يظن بأنه تحرر وتخلّص من الشرط الذي يحرّظه على سقوطه.

Dominique fölscheid: (que sais-je ?), les grandes philosophies,7ème édition, puf, paris, 2006, p29-.

29 *Saint Augustin : Les révision (12), traduction, gustave bardy, Desclée de Brouwer et cie,Paris, 1950, p317.*

30 أوغسطين: مدينة الله، ج2، المصدر السابق، ص 63.

31 المصدر نفسه، ص 70.

32 اتين جلسون: الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، المرجع السابق، ص ص 184 ، 190.

يُلاحظ أيضا في:

- *étienne gilson :introduction a la philosophie de saint augustin, 2ème édition, Librairie philosophique J. Vrin, 1943 , pp188-189.*

33 أوغسطين: مدينة الله، ج2، المرجع السابق، ص ص 71ـ 72.

34 اتين جلسون: الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، المرجع السابق، ص ص 423 ـ 425.

35 *Aristote : éthéque a nécomaque, traduction,barthélemy saint hilaire,librairie générale francaise, paris,1992, p51,74.*

36 أوغسطين: مدينة الله، ج3، ترجمة الخوري أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، لبنان، ط2، 2007، ص ص115-116.

37 أفلاطون: محاورات (أوطفرون، دفاع سقراط، أقريطون، فيدون)، ترجمة زكي نجيب محمود، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2001، ص208.

38 *Saint augustin : mélanges doctrinaux(10),traduction, G. bardy, J.A. beckaert, J. boutet,édition de brouwer et cie, paris, 1952, pp89-91.*

39 *Saint augustin : la morale chrétienne, op-cit, pp175-177.*

ويُلاحظ أيضا في:

- *Saint augustin : mélanges doctrinaux, op-cit, pp737-738.*

40 فايزة أحمد شكري: القيم الأخلاقية، المرجع السابق، ص111.

41 *Saint augustin : la morale chrétienne, op-cit, p207.*

42 أوغسطين: اعترافات، المصدر السابق، ص214.

43أوغسطين: مدينة الله، ج1، ترجمة الخوري أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط2، 2008، ص377.

44أوغسطين: مدينة الله، ج1، المصدر السابق، ص378.

45 المصدر نفسه، ص460.

46إنجيل متى: 22: 37-40 (الإصحاح22 الآية37-40).

47 *Albin michel : dictionnaire des philosophes, encyclopaedia universalis, paris, 1998, p133.*

48 *Saint augustin : la morale chrétienne, op-cit, pp141-143.*

49 *Saint augustin : problemes fondamentaux, op-cit, p281.*

50 *Agostino trapé : saint augustin, l'homme, le pasteur, le mystique traduit de l'italien par victor arminjon, édition, fayard, paris, 1988, pp170,172.*

51عادل العوّا: مذاهب السعادة، دار الفاضل، دمشق، 1991، ص ص131-132.

52 *Saint augustin : la morale chrétienne, op-cit, pp193,199.*

53 أوغسطين: اعترافات، المصدر السابق، ص ص36-37.

54ألبيوس: إبن عائلة كريمة في ثاجاست – نوميديوس: إفريقي يسكن قرب قرطاجة.

- أوغسطين: اعترافات، المصدر السابق، ص ص107،113.

55 المصدر نفسه، ص119.

56 بيار بويانسكي: أبيقورس، ترجمة بشارة صارجي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980، ص55.

57 *Piere-marie hombert : nouvelles recherches de chronologie augustinienne, institut d'étude augustiniennes, dépôt légal, paris, 2000, p270.*

58 إتين جلسون: الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، المرجع السابق، ص191.

59 *Jérome laurent : dossier, augustin, remarques sur la conception augustinienne du péché comme néant, cabiers philosophiques, caen,2010, p10.*